

*Mohamed Lachhab | محمد الأشهب
 **Translated by Fethi Meskini | ترجمة: فتحي المسكيني

مراجعة كتاب: نظرية الفعل التواصلي (المجلدان 1-2) ليورغن هابرمانس

Book Review

The Theory of Communicative Action in Two Volumes
 by Jürgen Habermas

عنوان الكتاب:	نظرية الفعل التواصلي.
المؤلف:	ليورغن هابرمانس.
المترجم:	فتحي المسكيني.
عنوان المجلد الأول:	عقلانية الفعل والعقلانية الاجتماعية.
عنوان المجلد الثاني:	في نقد العقل الوظيفي.
الناشر:	الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
سنة النشر:	2020.
عدد صفحات المجلد الأول:	624 صفحة.
عدد صفحات المجلد الثاني:	663 صفحة.

* أستاذ الفلسفة المعاصرة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.

Associate Professor of Contemporary Philosophy at Ibn Zohr University, Agadir, Morocco.

chercheurhabermas2001@yahoo.fr

** أستاذ الفلسفة المعاصرة، جامعة تونس.

Associate Professor of Contemporary Philosophy at the University of Tunis.

msknfth@yahoo.fr

مؤلفاته منذ ما يزيد على عقدين من الزمن. ونرى أن هذه القراءة التركيبية ربما ستبني القارئ العربي لأهمية الكتاب على نحو أفضل من قراءة أخرى تعرّض أفكار المؤلف بحسب كل فصل. ولتحقيق ذلك ستعرض لموقع نظرية الفعل التواصلي في برنامج هابرمانس الإبستيمولوجي؛ ليتوقف القارئ على أهمية الكتاب الذي ارتبط باسم "النظرية النقدية" التي طورها هابرمانس، في مختلف المجالات العلمية والفلسفية، وليكون أيضًا على يقنة من منزلة هذا الكتاب في مشروعه الفلسفى العام قبل فترة الثمانينيات وما بعدها. وستقف، أولاً، على دواعي ترجمة هذا الكتاب وأهميته في السياق العربي. ثم نصوغ، ثانيةً، توليفًا متعلّقًا بأهم المشكلات الفلسفية التي تناولها، وهي مشكلات تتطلّب من القارئ العودة إلى الكتاب لمعرفة الخطّة المنهجية والحجاجية التي سلكها مؤلّفه، لإبراز أهمية البرديم التواصلي الذي ينتصر له، استنادًا إلى مكتسبات العلوم الاجتماعية مع رواد علم الاجتماع الحديث والمنعطف اللغوي. ثـم نقدم، ثالثًا، بعض الملاحظات عن الترجمة. وفي إثر ذلك، نختّم هذه القراءة ببعض الخلاصات.

أولاً: موقع نظرية الفعل التواصلي في برنامج هابرماسي الإبستيمولوجي

يُمثّل هابرمانس، أحد الوجوه الفلسفية البارزة في تاريخ الفلسفة الغربية المعاصرة، وهو فيلسوف تميّز مشروعه الفلسفى، بإعادة قراءة تاريخ الفلسفة الغربية، انطلاقًا من العودة إلى إيمانويل كانت Immanuel Kant (1724-1804)، لتحيّن هذا التاريخ، وإبراز راهنية الفكر النّقدي التّنويري، على اعتبار أنّ مشروع الحداثة بالنسبة إليه لم

يستلزم تقديم كتاب نظرية الفعل التواصلي *Theorie des kommunikativen Handelns* (1981)، للفيلسوف الألماني يورغن هابرمانس Jürgen Habermas، الصادر في مجلدين، عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات⁽¹⁾، وضعه في السياق الفلسفى الذي جاء فيه لكتونه كتابًا مفصّلًا في مسار هابرمانس الفلسفى. وقد بذل المترجم فتحي المسكيني جهداً كبيرًا للامساك بالقضايا الأساسية التي تناولها الكتاب الذي اجتهد هابرمانس فيه منهجياً بطريقة أبى فيها عن نفس حجاجي للمرافعة، من أجل تطوير "نظرية الفعل التواصلي"، في مطلع ثمانينيات القرن العشرين، وذلك من خلال اعتماد مقاربة متعددة المباحث، تجمع بين تخصصات مختلفة من حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ويكفي القول إن الكتاب نشرت حوله، بعد صدوره، أكثر من 900 من الدراسات والمتابعات النقدية، وفي ذلك دلالة على مدى النقاش الذي أثاره بين مناصري النظرية النقدية ونقادها. ولهذا، ستقصد للقارئ فكرةً عامة، عن هذا الكتاب، استنادًا إلى المتن الفلسفى الذي قدمه هابرمانس، مستفيدين من التراكم المعرفي الذى اكتسباه من

(1) صدر عن سلسلة "ترجمان" في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات كتاب نظرية الفعل التواصلي في مجلدين؛ الأول ذو عنوان فرعى: *عقلانية الفعل والعقلانية الاجتماعية*، أما الثاني فعنوانه: *في نقد العقل الوظيفي*، وهو ترجمة كاملة عن الألمانية، بالاستعانة بالترجمتين الفرنسية والإنكليزية. وقد أجزى الترجمة فتحي المسكيني، في مدة تجاوزت أربع سنوات، نظرًا إلى صعوبة المهمة، ذلك أنّ نقل كتاب من حجم نظرية الفعل التواصلي إلى اللسان العربي يتطلّب جهداً لغوياً، وإلماماً معرفياً بالمتن الفلسفى لهابرمانس والنظرية النقدية، من جهة، والنظريات الفلسفية والسوسيولوجية واللسانية التي يجيئ إليها هابرمانس في بنائه الحجاجي من جهة ثانية. وأتوجه بالشكر الجزيل للزميل رشيد بن بيه، على الملاحظات القيمة التي تفضل بها، وعلى مراجعته لهذه القراءة من حيث الشكل والمضمون.

لمنظّمات الفلسفة الماركسيّة التي تشكّل الدعامة الأساسيّة للنظرية النقدية؛ إذ نلاحظ اتساع الهوة بينه وبين المدرسة النقدية، وهذا ما بلوّره في مقالته "إعادة بناء المادّيّة التاريّخية" *Towards a "Reconstruction of Historical Materialism* التي قلب فيها الماركسيّة رأساً على عقب، ونادي بضرورة الانتقال، من براديم الصراع *Conflict*، إلى براديم التواصل *Communication*⁽⁴⁾ الذي يقوم على "أخلاقيات المناقشة"⁽⁵⁾ في أفق بناء مجتمع ديمقراطي، يعمّه الحوار والتواصل. وقد استفاد هابرماس في هذه الفترة، من التداوليات الكلية والنظرية الحجاجيّة⁽⁶⁾.

جعلت المقاربة التي اتبّعها هابرماس، في نظرته التواصليّة الداعيّة إلى تأسيس عقل تواصلي بديل من "العقل الأدائي"، أو ما سماه "العقلانيّة التواصليّة" *Communicative Rationality*، منه ممثّلاً شرعيّاً لجيل مدرسة فرانكفورت الثاني. إنّه، بالنظر إلى حسّه الفلسفّي النّقديّ، يختلف في فلسفتّه النّقديّ عن مارتن هайдغر *Martin Heidegger* (1889-1976)، وفريديريش نيتشه *Friedrich Nietzsche* (1844-1900)، والفلسفّة الفرنسية، الذين يمثلون جيل "فلسفة الاحتكاف"، وهذا ما بُرِزَ في مراجعته النّقديّة لهؤلاء في كتابه *الخطاب الفلسفّي للحداثة* (1985)، الذي وجه

(4) محمد الأشهب، "هابرماس وإعادة بناء المادّيّة التاريّخية: من براديم الإنتاج إلى براديم التواصل"، *مجلة الأرثنة الحديثة*، العدد 18-17 (2020)، ص 67-99.

(5) ينظر: محمد الأشهب، *أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لهابرماس* (عمّان: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2013).

(6) ينظر مجمل المؤلّفات التي نشرت في هذا الكتاب بوصفها أبحاثاً مهدّة لنظرية الفعل التواصلي:

Jürgen Habermas, *Vorstudien und Ergänzungen zur Theorie des kommunikativen Handelns*, 3rd ed. (Berlin: Suhrkamp Verlag, 1995).

يكتمل⁽²⁾. يضاف إلى ذلك أنه مشروع يقوم على مقدّمات ومصادر معياريّة خاصّة به⁽³⁾. وفي هذا السياق، سيعمل هابرماس على تطوير مشروع "مدرسة فرانكفورت"، على الرغم من الاختلافات الجذرية بينه وبين مشروع الجيل الأول الذي يمثله ماكس هوركهايمر *Max Horkheimer* (1895-1973)، وتيودور أدورنو *Theodor Adorno* (1903-1969)، وهبرت ماركوزه *Herbert Marcuse* (1898-1979)، وغيرهم؛ فيما يرتبط خاصّةً بتقدّهم الجذرّي للعقل الأنواري، وفيما يرتبط كذلك بتحمّيله مسؤوليّة الكوارث التي لحقت بالمجتمع الأوروبي، بعد عصر التنوير، مثل الحرب العالميّة الأولى (1914-1918)، وال الحرب العالميّة الثانية (1939-1945)، و"ظهور الأنظمة الشمولية" ... إلخ.

لم يتفق هابرماس مع الانتقادات الجذرية للعقل، رغم اعترافه بوجود جوانب سلبيّة ناتجة من العقل الأدائي. ولم يمنعه انتقاده لأسلافه، ونخص بالذكر منهم هوركهايمر، من تبنيّ أفكار النّظرية النقدية، ولا سيما في كتاباته المبكرة، مثل: التّحول البنّوي للفضاء العمومي (1962)، والعلم والتّقنية ك"إيديولوجيا" (1968)، والمعرفة والمصلحة (1968)، وأزمة الشرعية (1973)، وغيرها. وفي مطلع سبعينيّات القرن العشرين ووسطها، وبالنظر إلى افتتاح هابرماس على الدراسات السياسيّة، وفلسفة اللغة، وعلم النفس التّكويوني *Psychology Formative*

(2) يورغن هابرماس، "الحداثة - مشروع لم يكتمل"، ترجمة فتحي المسكيني، *تبّين*، مجل 1، العدد 1 (صيف 2012)، ص 183-196.

(3) Jürgen Habermas, *Auch eine Geschichte der Philosophie: Band 1: Die okzidentale Konstellation von Glauben und Wissen* (Berlin: Suhrkamp, 1985), pp. 390-425.

وسياسية؛ هو يصرّ على أنها نظرية نقدية للمجتمع. وبناءً على ذلك، كان يهدف من خلال محاكمته للعقل الغربي، في نظريته للحداثة والعقلانية الأداتية، وإدخاله "نظرية التواصل"، إلى وضع قواعد لنظرية فلسفية واجتماعية تسمح بإمكانية التفكير في الطواهر المرضية للمجتمع الحديث؛ من أجل تقويم هذا الاعوجاج، أو "ال التواصل المُشوّه"⁽⁸⁾ الذي يحول دون بناء مجتمع حادثي، ديمقراطي، يقوم على أساس التفاهم والتواصل.

لقد تولد لدى هابرماس، هذا الهاجس المتعلق بإشكالية التواصل من تفاعله مع المناوشات السياسية والفكريّة داخل الفضاء العمومي الحديث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، ومن الدوافع الشخصية لهذا الاهتمام، كما فصلها في المحاضرة التي قدمها في طوكيو⁽⁹⁾. وكما هو معروف، يُعد هابرماس من المناهضين للتجربة النازية. ففي كتاباته الأولى، وجه انتقادات قوية لهايدغر بخصوص ما عرف بـ"حالة هайдغر" في الفلسفة الألمانية. واستمر في مناهضته لفكرة المحافظين في أعماله المتأخرة.

سيجدر متابعة مسيرته الفلسفية أنّ هذا الأسلوب ظلّ راسخًا، في مشروعه الفلسفي وكتاباته السياسية إلى يومنا هذا. وتُعد كتاباته في أواسط الثمانينيات مرحلة مهمة في هذا السياق؛ وذلك حين كتب الخطاب الفلسفـي للحداثة، والمقالات التي ساهمت، في ظهور ما سُمي "سجال المؤرخين" Historikersstreit، وهو سجال دار بينه وبين المؤرخين الألمان المحافظين الذين أرادوا التطبيع مع التاريخ الألماني النازي.

(8) Distorted Communication.

(9) Jürgen Habermas, *Zwischen Naturalismus und Religion* (Frankfurt am Main: Suhrkamp Verlag, 2009), pp. 15–27.

فيه انتقادات لاذعة إلى ميشيل فوكو Michel Foucault (1926–1984)، وجورج باطايل Georges Bataille (1879–1962)، وجاك دريدا Jacques Derrida (1930–2004)، وجان فرانسوا ليوتار Jean-François Lyotard (1924–1998).

ويُعد هذا الكتاب، الذي منح هابرماس شهرة منقطعة النظير في الأوساط الفلسفية الفرنسية، تطويرًا لأسس نظرية الفعل التواصلي، انطلاقًا من تاريخ الفلسفة الغربية المعاصرة، وتحديديًا بدءًا

من فريدريش هيغل Friedrich Hegel (1770–1831)، وصولًا إلى دريدا. وهي الأسس التي سبق لها هابرماس أن تناولها في كتابه نظرية الفعل التواصلي. وفي هذا الكتاب، ظهر هابرماس قارئًا متعمّلاً بالنظريات السوسيولوجية الكبرى لدى ماكس فيبر Max Weber (1864–1920)، وتالكوت بارسونز Talcott Parsons (1902–1979)، وجورج هيربرت ميد George Herbert Mead (1863–1931)⁽⁷⁾، وقد طور المفاهيم الأساسية لنظريته، مثل: "الإجماع"، و"الاتفاق"، و"التفاهم"، و"الفعل التواصلي"، و"النسق"، و"العالم المعيش"، وهي مفاهيم سبق أن أشار إليها في كتاباته الصادرة قبل فترة ثمانينيات القرن العشرين، مثل: *العلم والتقنية كـ"إيديولوجيا"* ومنطق العلوم الاجتماعية.

وفضلاً عن ذلك، لم يتوقف هابرماس في تصوّره الناهي على هذه المفاهيم التي تشكّل النواة الصلبة لنظرية التواصلية فحسب، لأنّ نظرية ليست نظرية لغوية، بل لها امتدادات اجتماعية

(7) تُعدّ الفصول الكبرى التي خصصها هابرماس لرواد السوسيولوجيا الحديثة في المجلدين ممّا، والقضايا التي تناولها، والتي أعاد بناءها، من منظور بردايم الفعل التواصلي، أبرز تعبير عن هذا التأسيس لنظرية، انطلاقًا من العلوم الاجتماعية.

وقد استفاد من نظريته في أخلاقيات المناقشة. وتوّجت أبحاثه في هذا المجال بمؤلفات عديدة، مثل: *الوعي الأخلاقي والفعل التواصلي*، وأخلاقيات المناقشة، والحقيقة والتبير. وتُعد هذه المساهمة من المساهمات النوعية في تطوير السجال الفلسفية المتعلق بـ"العقل العملي" Practical Reason الكانتي في القرن العشرين؛ إذ نجد عودة قوية لهذه الفلسفة لدى رولز، وألان رونو Renault، ولوك فيري Ferry، وإرنست توغندهات Tugendhat، وإيل، وهانز يوناس Jonas (1993-1903). فهذه النظرية لدى هابرماس تتأسس على المناقشة والحووار، في *أفق بناء معايير أخلاقية متفق عليها*؛ من أجل المحافظة على تماسك المجتمع واندماجه. وهذا الاندماج بمنزلة الرهان الأساسي لنظرية الفعل التواصلي كما طورها هابرماس في كتابه العمدّة *نظريّة الفعل التواصلي* (في المجلدين).

وإذا كان كانط قد انطلق من السؤال: كيف يمكنني أن أعرف؟ وتساءل عن الشروط الضرورية للمعرفة، فإنّ السؤال الهابرماسي هو عن الشروط الضرورية لتحقيق اندماج ممكّن. وبعد هذه المساهمة، سيعمل على تطوير منطلقات النظرية التواصصية في مجال الفلسفة السياسيّة؛ إذ سيستثمر أسس أخلاقيات المناقشة في مقارنته مسأّلة الديموقراطية التي صاغها في نظريته، والتي سماها بـ"الديموقراطية التشاورية" (12).

(12) Mohamed Lachhab, "Democratie deliberative et droits de l'homme chez Habermas," in:

محمد الأشهب [وآخرون]، "مسارات العلم والحياة: في التأسيس والالتزام، العلوم الاجتماعية والتفكير في قضايا: السياسة، الدولة، السياسات"، تنسيق حسن طارق وسعید بنیس، مجلة السياسات العمومية، ج 2، العدد 21 (ربيع 2016)، شوهد في 10/4/2023، في: <https://bit.ly/3ZNlzWv>

إضافة إلى هذا السجال، نستحضر سجالات أخرى، خاضها هابرماس مع مدارس ونظريّات فلسفية؛ ما أضفي على كتاباته طابعاً حوارياً Dialogique. وفي هذا السياق، نذكر سجاله مع الفلسفة الوضعيّة Positivism، والنظرية النسقيّة Niklas Luhmann (1927-1998)، والفلسفة التأوّلية لهانز جورج غادامير Hans-Georg Gadamer (1900-2002)، وسجاله الكبير مع فلاسفه ما بعد الحداثة Postmodern Philosophers، والحركة الطلابية اليسارية الراديكالية، وكذلك مع رواد الفلسفة التحليلية Analytic Philosophy، أمثل: جون سورل John Searle، وجون لانجشو أوستن John Langshaw Austin (1960-1911)، وبول غرايس Paul Grice (1988-1913)، وأخيراً، حواراته مع أبرز منظري الفلسفة السياسيّة الأمريكية، مثل جون رولز John Rawls (1921-2002)، ورونالد دوركين Ronald Dworkin (2002-2013) (11).

لم يتوقف هابرماس، في سياق تعميقه نظرية الفعل التواصلي على المدارس اللغوية والسيكولوجية، بل افتح أيضاً على فلسفة الأخلاق الكانتية Kantian Ethics، على نحو خاص، لإعادة بنائها في ضوء الفلسفة البينذاتية Intersubjective، بوصفها بديلاً من الفلسفة الذاتية. وكان له في ذلك نقاشٌ فلسفيٌّ، مع زميله كارل آطو آبل Karl-Otto Apel (1922-2017)،

(10) ينظر: محمد الأشهب، *فلسفة اللغة: قضايا التواصل والتأويل والترجمة* (أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2021).

(11) محمد الأشهب، "الحق في العدالة في الخطاب الفلسفي المعاصر"، في: محمد الأشهب [وآخرون]، *ما العدالة؟ معالجات في السياق العربي* (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 107-163.

سنجد أنّ لكل ذات مستقلة حقّ إبداء الرأي في القضايا المطروحة للنقاش في الفضاء العمومي. وفي ظل هذه العملية التواصلية المؤسّسة على المناقشة العقلانية، سيتكون الرأي العام. وإضافة إلى الأهمية التي أضحت تحتلها الديمقراطية في الفضاء العمومي المعاصر، سنجد أنّ هابرمان ينظر إلى الديمقراطية باعتبارها السبيل الأوحد لحل المشكلات المتعلقة بالفرد والمجتمع.

كلّما ظنّ القارئ أنّ مسيرة هابرمان الفلسفية قاربت نهايتها، فوجئ بمؤلفات أخرى له لا تقلّ أهمية عن مؤلفاته السابقة. وهنا تجدر الإشارة إلى الكتاب الذي خصّصه لتاريخ الفلسفة في مجلدين، هذا أيضًا تاريخ الفلسفة: تركيبة غربية للإيمان والمعرفة⁽¹³⁾، الذي لم يقدّم فيه تاريخًا للفلسفة بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، ولم يكن فيه مؤرخًا للفلسفة أيضًا، كما عودنا بعض المؤرخين، بل إنّ الأمر يتعلّق بتألّف ينطلق من تاريخ الفلسفة يهدف إلى قراءة الفكر الفلسفي الغربي، وبيان كيفية تطوير سيرورة التعلم من العصر المحوري Achsenzeit إلى النظرية النقدية التي يُعدُّ هابرمان نفسه أحد روادها. ولهذا، فإنّ تاريخ الفلسفة الذي قدّمه هابرمان في هذا العمل لا ينفصل عن منظور تطوير نظرية الفعل التواصلي التي وضع معالّمها الأساسية في الكتاب المُترجم.

يتبيّن من خلال هذه النّظرة البنورامية لأهم مفاصيل "نظريّة الفعل التواصلي" لـهابرمان، في مستوياتها المختلفة، أنّ فلسفته في التواصل

(13) يُعتبر كتاب هابرمان الأخير المتعلّق بتاريخ الفلسفة توثيّقًا لهذا المسار الفلسفي الطويل. وهو عمل لا يُؤرخ للفلسفة، بل يتّلّف فيه بناءً على تاريخ الفلسفة، استنادًا إلى منطلقات "نظريّة الفعل التواصلي". صدر هذا الكتاب عام 2019 في جزأين؛ وبعد أضخم مؤلف في مؤلفاته كلّها.

وفي الوقت الذي كان يعتقد فيه متابعي هابرمان أنّ كتاب نظرية الفعل التواصلي سيظلّ أهمّ مؤلّف لديه في مسیرته الفلسفية، إذا به يفاجئ الأوساط الأكاديمية الفلسفية بكتاب لا يقلّ أهميّة عن مؤلفاته السابقة، هو: العيانة والصلاحية (1992). وقد حظي هذا الكتاب باهتمام واسع على الصعيد العالمي، واعتُبر أهمّ كتاب قدّم في الفلسفة السياسيّة المعاصرة بعد كتاب نظرية في العدالة لروزل. وهو في الأصل تطوير لمحاضرات قدّمها عام 1986 عنوانها "الحق والأخلاق". وفي هذين الكتابين، كشف هابرمان عن توجّه فلسفي آخر، وذلك من خلال الاعتماد على مرجعية الفلسفة السياسيّة الأميركيّة بالنسبة إلى روزل. Frank Michelman ودوركين، وفرانك مشلمان. إنّ الاهتمام بالفلسفة السياسيّة الذي لازم هابرمان، بدأيّة من كتابه التحول البنوي للفضاء العمومي، ظلّ وفيًا له في منطلقات نظرية الفعل التواصلي. ويمكن أن يلاحظ القارئ تطوير هابرمان لمفاهيم العقلانية التواصلية في ارتباطها الوثيق بمفاهيم الديمocratic التشاورية، والسلطة التواصلية، والمجتمع المدني أيضًا؛ باعتباره فضاءً يتوسّط الدولة والمجتمع، وليس فضاءً متماّهياً مع الدولة، أو نقیصًا لها فحسب. ولهذا، نرى في قراءتنا لكتاب نظرية الفعل التواصلي أنه كتاب مؤسّس لمفاهيم التي ستبني عليها الفلسفة السياسيّة لـهابرمان لاحقًا، بل فلسفته في الدين التي ستظهر في كتاباته المتأخرة أيضًا.

إنّ مقاربة هابرمان لسؤال الديمocratic تُعدّ في وقتنا الراهن مقاربةً مهمة؛ لأنّها ترتبط بأخلاقيات الحوار والمناقشة. فهو يريد تأسيس ديمocratic على أساس جماعة مثالية للتواصل، خالية من أيّ هيمنة. ثم إنّ مفهوم التشاور هو أيضًا مفهومٌ مركزيٌّ؛ ففي هذا البرديّم التشاوري أو التداولي،

ثانيًا: دواعي ترجمة الكتاب وأهميته في السياق العربي

كثيرًا ما يطرح المترجمون سؤالات من قبيل: ماذا تُترجم؟ ولماذا تُترجم؟ ونعتقد أن الإجابة عن مثل هذين السؤالين، بالنسبة إلى هابرماس ونظريّة الفعل التواصلي، تكمن ببساطة في أنّ المسكيني اختار ترجمة هذا الكتاب لأهميته في تاريخ النظريّة النقدية، ولأهمية شخصها مُمثل جيلها الثاني هابرماس، ولأهمية مسيرة هابرماس نفسه أيضًا، لأنّ هذا الكتاب مثل تحولًا في مساره الفلسفي من جهة، وتحولًا في النظريّة النقدية لاحقًا من جهة ثانية. إنّ الأهمية الإبستيمولوجية لا ينكرها أحد؛ فالكتاب يُعد واحدًا من أهم المؤلفات الفلسفية في القرن العشرين. لكن الأهم من ذلك بالنسبة إلى المترجم هو أهمية النقاش الراهن المتعلّق بالدين في الفضاء العمومي⁽¹⁴⁾. وحتى إن كان كتاب نظريّة الفعل التواصلي لا يتناول الموضوع تناولًا مباشرًا، فإنّ مؤلفاته المتأخرة؛ أي التي كتبها بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، مثل: مستقبل الطبيعة الإنسانية: نحو نسالة ليبرالية، وبين النزعة الطبيعية والدين والإيمان والمعرفة، وأخيرًا تاريخ الفلسفة، كانت بمثابة سجال جينيالوجي بين المعرفة والإيمان، لا يمكن فهمها إلا في ضوء الأبحاث التي أثارها هابرماس عن "الدين"، من خلال الرجوع إلى "سوسيولوجيا الدين" لفبر، وربط "الحداثة" بـ"العقلانية الاجتماعية"، وبضرورة نزع "الطابع السحري" في تفسير العالم؛ وهي عملية لن تجري إلا بجعل الدين جزءًا من

تُشكّل برأيًّا فلسفياً متميّزًا، وأنّ مذهبه التواصلي يمتد إلى جميع أعماله الفلسفية الأكademie وكتاباته السياسيّة التي لا يمكن فصلها عن توجهه الفلسفي العام الذي تؤطره نظرية الفعل التواصلي؛ بدايةً من كتاباته المبكرة إلى وقتنا الراهن، بما في ذلك الأبحاث المتأخرة جدًا التي خصّصها لفلسفة الدين، بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 (الولايات المتحدة الأميركيّة)، والتي تَوَجّهَ مؤخرًا بالكتاب المشار إليه، متبعًا مسار تطور "العقلانية التواصليّة"، وـ"الحرية التواصليّة"، وـ"حرية التعبير والتفكير"، في إطار سيرورة تَعَلُّم تمتد إلى ما يُنَاهِز 3000 سنة. ولا يُفهَم هذا العمل الذي سلك فيه هابرماس مقاربةً جينيالوجية إلّا بالعودة إلى منطلقات نظرية الفعل التواصلي التي تبلورت منهجهًا في كتابه نظرية الفعل التواصلي تحديديًا. ولهذا السبب، فإنّ هذا الكتاب، الذي ترجمه المسكيني، يُلْحَضُ ما قبله، ويُؤَسَّسُ لما بعده. بل إنّ كتابات هابرماس "الثانوية" عن الفضاء العمومي، وحواراته العديدة التي أجراها في الصحف والمجلات، أيضًا، لا تُفهَم إلّا في ضوء هذه الخلية الفلسفية التي تبلورت في نظرية الفعل التواصلي. لقد كان المسكيني يولي مؤلفات هابرماس اهتمامًا قليلًا أن يترجم بعضها، وقد كان واعيًّا بأهمية هذا الكتاب وراهنيته، من دون أن يقتصر ذلك على مستوى المضامين التي يقدمها حول "مسألة الحداثة"، بوصفها مفهومًا محوريًّا في الكتاب، ومن دون أن يقتصر أيضًا على نظرية الفعل التواصلي، باعتبارها نظرية تحاول إعادة بناء خطاب العقلانية والحداثة في ضوء منطلقات الفعل التواصلي والعقلانية التواصليّة، بل يضاف إلى ذلك وعِيًّا بأهمية هذه الترجمة في السياق العربي المعاصر.

(14) ينظر: محمد الأشهب، "دور الدين في الفضاء العمومي: نموذج النظريّة النقدية لهابرماس"، في: محمد الأشهب (وآخرون)، المجتمع والدين والسياسة (أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2021)، ص 255-275.

المطروحة، بما في ذلك القضايا الدينية، من دون خوف. فوحده الإيمان الحر يمكنه أن يتزعز هذه الهالة عن الدين المحتكر من لدن بعض الفقهاء. والمترجم، بحكم شعوره براهنية هذه المسألة في العالم العربي والإسلامي، انتبه إلى أهمية ربط هذا العمل بالنقاش المتعلق بـ"الدين في الفضاء العمومي" في الغرب الذي يمكن الاستفادة منه على الأقل منهجيًّا، وليس إبستيمولوجيًّا فحسب.

يقول المسكيني في هذا السياق: "لن يهمنا الكتاب إذا لأسباب إبستيمولوجية بحثة أو لسد ثغرة بحثية في مجال تخصصه. إنه عندنا كتاب يساعدنا على بلوغ خطاب جديد حول أنفسنا العميق في وقت جد خطر من تاريخها: وقت النقاش الجذري والأخير حول دور الملة. إن أفق الحاجة إلى ترجمة هبرماس هو على وجه الدقة أفق النقاش حول دور الدين في مجتمعاتنا الحديثة" (مج 1، ص 48-49). ويضيف المترجم مستعملاً ضمير "نحن" للتأكيد على الدافع، والحاجة الوجودية للترجمة قائلاً: "نحتاج إليه في مفصلٍ خطر جدًا من تاريخ أنفسنا، تاريخ الخروج من طور أخلاقي إلى آخر جديد وجددٌ معقدٌ. بعبارة حادة: 'نحن' أمام أفق فهم لأنفسنا الجديدة تهديدٌ ليس تحديات المجتمعات ما بعد الصناعية فحسب، بل أيضًا عودة الدين في معنى "الملة" الوسيطة. إن الدين فرض وضعية تأويلية وخطابية لا يمكن لأي تفكير معاصر تفاديها" (مج 1، ص 48). وهذه المسألة التي نتقطع فيها مع المسكيني، وفلسفته العامة في نقل هذا الكتاب إلى اللسان العربي، تدفعنا إلى أن نُضيف إلى كلامه أنَّ هذا الكتاب على المستوى المنهجي هو كتاب يعلمُ ويرُّي في المرء "ثقافة الإنصات للآخر" في الفضاء العمومي؛ الذي هو فضاء مفتوح للجميع من دون إقصاء. فكثيراً ما ترد في

النقاش العقلاني، وإخراجه من سطوة الرُّمْبان ورجال الدين.

إنَّ هذه الأهمية الفلسفية للكتاب تُعدُّ أيضًا بمثابة "هواجس فلسفية" للمسكيني في أبحاثه التي تناول فيها مواضيع متعلقة بفلسفة الدين، وبلورها في كتابه: الإيمان الحر أو ما بعد الملة⁽¹⁵⁾، وهو كتاب حاول أن يؤسس فيه لما يسميه "الإيمان الحر" الذي ينفلت من كل سلطة دينية تقليدية، مثل الإيمان الذي أسسه فلاسفة الحداثة بداعية من كانط إلى هابرماس، مُروِّاً بباروخ س宾وزا Baruch Spinoza (1632-1677) وأخرين⁽¹⁶⁾.

إنَّ الناظر في مؤلفات المسكيني، في هذه الفترة، يُلاحظ تزامناً بين هذه الأشغالات وترجمة كتاب نظرية الفعل التواصلي لهابرماس. وهذا يعني أنَّه في بعض الأحيان قد يترجم أعمالاً يجد فيها إجابات عن بعض الأسئلة التي يطرحها، ولعله وجد ما يقي بذلك في إجابات هابرماس عما يسميه إضفاء "الطابع اللغوي" على المقدس، أو كما يترجمه هو بـ"السنة المقدس" Versprachlichung des Sakralen عملية تجعل "المقدس" موضوع نقاش لتحريره من طابع "القدسية" الذي أصبح مُحااطاً بها. أو بعبارة أخرى، أن يكون لكلَّ العقلاة، خاصةً في الوطن العربي، حقَّ التدخل في القضايا

(15) ترامت ترجمة المسكيني لهذا الكتاب مع اهتمامه بمسألة "حضور الدين" في الفضاء العمومي، وهو اهتمام يترجم في الكتاب الذي نشره في الموضوع عام 2018 بعنوان: الإيمان الحر أو ما بعد الملة: مباحث في فلسفة الدين. وهذا الأمر يدل على أنَّ المسكيني طوال مدة ترجمته لكتاب نظرية الفعل التواصلي كان متشغلاً بالمسألة نفسها، وهو انشغال لا ينفصل عن الانشغال المركزي لديه، ولدي كثير من الباحثين العرب، بقضايا الديموقратية ودور الدين في الفضاء العمومي.

(16) فتحي المسكيني، الإيمان الحر أو ما بعد الملة: مباحث في فلسفة الدين (الرباط: مؤمنون بلا حدود، 2018)، ص 11.

من معرفتهم بعالم الحياة الخاص بهم" (م杰 1، ص 60).

ثالثاً: القضايا الكبرى لنظرية الفعل التواصلي

1. عالم الحياة باعتباره خلافية لسيرورة التعليم

يكتسي مفهوم "عالم الحياة"، أو "العالم المعيش"⁽¹⁷⁾، أهمية كبيرة في نظرية الفعل التواصلي؛ باعتبارها نظرية نقدية في المجتمع، هدفها تعزيز لحمة التواصل والتفاعل والاندماج بين الأطراف المتفاعلة في المجتمع. وتُعد عملية عقلنة عالم الحياة من المداخل الأساسية لعقلنة سيرورة التطور الاجتماعي. ونرى أن تتصاعد الخطابات اليمينية الشعبوية، وأن التطرف بمختلف ضروبها الدينية والعرقية واللغوية في العالمين العربي والإسلامي، وحتى في العالم الغربي، ما هما إلا تعبير عن التشوّهات التي أصابت "العالم المعيش"، باعتباره العالم المشترك بين المتمميين إلى الجماعة⁽¹⁸⁾.

ومن منطلق أهمية هذا المفهوم في نظرية الفعل التواصلي، يُعد البحث في العلوم الاجتماعية مدخلاً إلى كشف الأعطال التي تعرقل عقلنة عملية تواصل صحي داخل المجتمع. ومن شأن البحث الميداني في فرضيات هذه الأعطال أن يساعد صاحب القرار على اتخاذ مبادرات قادرة

الكتاب فكرة "سيرورة التعلم" Lernprozess ومفهوم "التعلم" هو من المفاهيم المركزية في نظرية الفعل التواصلي؛ إذ إن سيرورة التعلم ذات المنحى الأفقي، وليس العمودي، تتعلم فيها من بعضنا كيفية عقلنة كلامنا وسلوكنا وأفعالنا وقيمنا، على أساس أن العقلانية الأساسية التي ينظر لها هابرماس في عمله هذا هي "عقلانية تواصليّة" غايتها تحقيق التفاهم بين المعينين بالقضايا موضوع النقاش في الفضاء العمومي.

وباختصار، يمكن القول إن نظرية الفعل التواصلي هي نظرية في التعلم. والمساهمة الأساسية له في الكتاب الذي نحن بصدده مراجعته، بحسب ما ذهب إلى ذلك أكسل هونيث Axel Honneth، تكمن في الخطوة الأساسية التي قام بها من أجل تحويل مقدمات نظريته في التواصلي إلى نظرية في المجتمع عبر إصحابه مفهوم "العالم الحياة" أو "العالم المعيش" (م杰 1، ص 60). إن هذا العالم الذي تعرض لعملية التعرية والتآكل، بسبب هيمنة الأسواق أو المنظومات الاقتصادية والسلطات المختلفة التي جعلت العقلانية الأداتية تهيمن على حساب العقلانية التواصلية، هو ما يريد تصحيحه هابرماس عن طريق إعادة الاعتبار للعالم المعيش؛ بالنظر إلى أنه الخلفية الثقافية والاجتماعية التي يتحقق التعلم في إطارها، ويتسّع أفقه ومساره. وهذه هي أهم المكتسبات التي يمكن لعالم الاجتماع لدينا الاشتغال بها؛ لمزيد من الفهم لعالمنا المعيش من أجل "عقلنته"، والبحث عن مكامن القوة فيه. إن أعضاء مجتمع ما، كما بين ذلك هابرماس في الخطوة النسقية الثانية من حاججه (الباب السادس، الفصل الثاني) لا يكتفون بنقل قناعاتهم الخلفية فحسب، بل هم في ثنايا مسارات التعلم التي مفرّ منها إنما يوسعون أيضاً في الوقت نفسه

(17) غالباً ما تُترجم بطرقين مختلفتين، لكن هذا الاختلاف لا يفسد المعنى المقصود. فال訳者 المغربي إسماعيل المصدق في كل ترجماته لأعمال إد蒙وند هوسيل Edmund Husserl (1859-1938)، أو هايدغر، يترجمها بـ"العالم المعيش"، بينما يفضل المسكيني ترجمتها بـ"عالم الحياة".

(18) ينظر: المجلد الثاني من الكتاب، فيه تفصيل جيد لثنائية النسق (أو المنظومة) والعالم المعيش (أو عالم الحياة).

لسانها، فلا ريب في أن واقعها، في أمس الحاجة إلى تأسيس نظري لمقاربة هذا النوع من التفكير الساعي لتمتين عرى المجتمع التعددي، استناداً إلى مفهوم الفعل التواصلي.

إن تبني هابرماس لمفهوم العقل، بوصفه بناءً اجتماعياً، يفهم منه أن العقل التواصلي الهابرماسي ليس عقلاً متمركزاً حول الذات بل هو عقلٌ منفتح على عقول وثقافات أخرى. وعلى الرغم مما كُتب عن مركبة فلسفة التواصلي لدى هابرماس، فإنَّ الأمر الأساسي بالنسبة إلينا هو التمييز الذي يفتح أفقاً لآخر للمساهمة في محتوى القيم الكونية، وتوسيع إمكاناتها التأويلية، على أساس أن كل المعنيين لهم حق المشاركة في ذلك من منطلق ثقافاتهم؛ لكونها تشتمل على ما يكفي من المضامين المعرفية والقيمية التي يمكنها المساهمة في بناء "الكونية"، باعتبارها مشروعًا غير مكتمل. وهذا التصور، الذي نجده عند الفيلسوف البيني بولين هونتونجي (Pauline Hontondji) (21) الذي يدافع عما يسميه "الكونية النقدية"، يمكن تعزيزه في الفكر العربي المعاصر، من خلال تلقيه على نحو جيد، واستثمار البعد المعياري الكامن في كتاب نظرية الفعل التواصلي بجزأيه.

2. الحداثة بوصفها مشروعًا غير مكتمل وأهميتها الثقافية

لا تفصل ترجمة هذا المشروع عن الهاجس الذي يراود المسكيني وبعض الباحثين العرب بشأن

(21) Pauline Hontondji, "Construire l'universel: un défi transculturel," *Méthode (s): Africain Review of Social Sciences Methodology*, vol. 2, no. 1–2: Epistemological Fractures in a Globalized World: Normalizations, Debates and Alternatives in the Social Sciences (2017), pp. 160–161; Franziska dubgen & Stefan Skupien, *African Philosophy as Critical Universalism* (Switzerland: Palgrave Macmillan, 2019).

على تحقيق "اندماج صحيٍّ"، يحدّ من أمراض المجتمع الحديث. فعملية التعلم، التي تُعد مفهوماً مركزياً في النظرية النقدية، تجري في إطار التفاعل مع "العالم المعيش"؛ باعتبارها خلية مشتركة بين أعضاء المجتمع، وهي عملية مزدوجة تتعلق بالمرحلة الأولى منها بتعلم الذات في علاقتها بذاتها. أما المرحلة الذاتية، فهي تتعلق بتعلم الذات من الآخر⁽¹⁹⁾. ويستمر هابرماس التعلم في أفكار متعلقة بالديمقراطية والتربيَّة والتقدُّم والمناقشة والتواصلي؛ إذ يكاد القارئ يقول إنَّ نظرية هابرماس هي نظرية في التعلم؛ أي يمكن قراءة متن نظريته النقدية في ضوء هذا المفهوم المركزي⁽²⁰⁾.

إذا كان الحافز من وراء "نظرية العقلانية" التي يطورها هابرماس في نظرية الفعل التواصلي هو الفعل الموجه بالتفاهم، باعتباره الجانب المُهم في نظريته الاجتماعية، فإنَّ واقع الحال اليوم يؤكِّد، بعد مرور أربعين عاماً على نشر الكتاب، أنه كُتب بالأمس؛ إذ يكفي أن ينظر المرء في وقعة تصاعد تيارات اليمين المتطرف في ألمانيا نفسها، ليدرك التحدُّي الذي تواجهه المجتمعات الأوروبية، والمجتمع الألماني على وجه الخصوص؛ على نحو أصبحت فيه الديمقراطية "تأكل أبناءها"، ومن ثم يدرك قيمة نظرية الفعل التواصلي الساعية لبناء التفاهم على الفعل التواصلي. أما واقع حال الدول العربية التي نُقل الكتاب إلى

(19) ينظر: الفصل المخصص لهيربرت ميد في المجلد الثاني من الكتاب.

(20) ينظر مادة سيرورة (أو عملية التعلم) كما وردت في الكتاب الذي يُخصص لأهم المفاهيم الفلسفية التي طورها هابرماس في نظرية النقدية:

David S. Owen, "Learning Processes," in: Amy Allen & Eduardo Mendieta (eds.), *The Cambridge Habermas Lexicon* (Cambridge: Cambridge University Press, 2019).

الأقل يخوضون في نقاشات عقيمة حولها، إلى أن يتجاوزهم الزمن، وتفرض هذه المُخرجات نفسها بقوة الواقع، فإن الحداثة المتعلقة بدمقرطة الحياة السياسية، والاجتماعية، وعقلنة السلوك الثقافي، لا تزال تراوح مكانها. ولهذا فإن أهمية الكتاب تمثل في تصور جيد متعلق بأهمية عقلنة الثقافة في تطور المجتمع، وقد تمكن هابرمانس في كتابه هذا من بسط تصور ماكس فيبر بخصوص هذه المسألة؛ ولا سيما في الفصل "نظريّة ماكس فيبر في العقلنة" (م杰 1، ص 279-374).

3. العقلانية الغربية وسؤال الحداثة

المقصود بالعقلانية في هذا السياق هو "العقلانية الغربية"، بطبيعة الحال، وكيفية تطور العقل الغربي، ولهذا نجد هابرمانس قد حرص جيداً على تتبع مسار تطورها مستعملاً في ذلك أدوات منهجية، ورؤى نقدية، لإعادة بناء مفهومها، وخاصة التلقي الذي حظي به فيبر في هذه العقلانية، منذ كارل ماركس Karl Marx 1818-1883)، وصولاً إلى جورج لوکاتش György Lukács 1885-1971)، وأدورنو وهوركهايم، وهو تلقي طغى عليه طابع "التشيؤ" و"فلسفة الوعي". تلك هي الخلاصة الأساسية التي توصل إليها هابرمانس بعد قراءته النقدية لعقلانية فيبر في المجلد الأول. ولتجاوز هذا المأزق الذي عرفته العقلانية الغربية، سيوظف هابرمانس عدّته المنهجية، مُستعيناً بالبرديامات الكلاسيكية لعلم الاجتماع، كما جرى تطويرها مع ميد وإميل دوركهايم David Émile Durkheim 1858-1917)، باعتبارهما مؤسّسي برديام جديد مهّد لهابرمانس إعادة صياغة مفارقات العقلانية الغربية، في إطار مفاهيم تنطلق من الفعل التواصلي والفلسفة البيزنطية Intersubjectivity، وليس من

مشروع الحداثة غير المنجز؛ إذ سبق للمسكيني أن ترجم مقالة هابرمانس "الحداثة - مشروع لم يكتمل"⁽²²⁾ التي تدرج في السياق نفسه، والتي تعكس كذلك الهاجس نفسه الذي يحرك هذا الباحث تأليفاً وترجمة. فتعرييه للكتاب قد كان عن وعي بأهمية "سؤال الحداثة"، و"العقلنة" ورهاناتها، في سبيل إيجاد طرائق للنهوض بالمجتمعات العربية، التي لا تزال تعيش التخلف، والاستبداد، و موقفاً متراجعاً من الحداثة، بوصف ذلك مشروع لا ينفصل فيه الثقافي والسياسي عن الاقتصادي، والتقني، والعلمي. فالحداثة برمتها ظلت دائماً رهان المثقف العربي ترجمةً وتلبيساً. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن رهان المسكيني في ترجمته لا يخرج عن رهاناته الأخرى وهو يكتب عن "سؤال الحداثة وأخواتها". فالكتاب الذي ترجمه يطرح قضايا راهنة تهم القارئ العربي الساعي لبناء "مجتمع حادثي" معقلن يقطع مع كثير من المظاهر التقليدية التي تعرقل مسيرة التحديث والحداثة⁽²³⁾.

إذا كان مسار التحديث، بالمعنى التقني، هو تجهيز البنى التحتية والانفتاح على مكتسبات "الحداثة التقنية" من دون أي مقاومة تذكر - على عكس ما كنا نعيه سابقاً - بحيث كان بعض الفقهاء يحرّمون كل مستجدات الحداثة، أو على

(22) هابرمانس، "الحداثة مشروع - لم يكتمل"، ص 183-196. ينظر أيضاً، ترجمة أخرى للمقالة نفسها، في: يورغن هابرمانس، "الحداثة مشروع غير منجز"، ترجمة جورج تامر، مراجعة جورج كتورة، في: يورغن هابرمانس، الحداثة وخطابها السياسي (بيروت: دار النهار للنشر، 2002)، ص 35-15.

(23) ينظر: الفصل الثامن المتعلق بالحداثة لدى فيبر، والفصول الأخرى المتعلقة بالعقلانية، والعقلنة الاجتماعية، والتشيؤ، وهي قضايا متشابكة، يُراهن هابرمانس فيها على إعادة بناء خطاب "العقلانية الغربية"، وكيفية تلقي الغرب، خاصة الألمان، لنظرية فيبر، فالعقلانية التواصليّة هي في صلب فكرة إعادة بناء مشروع الحداثة الغربية.

توصيلية" تجعل من الآخر طرفاً نديّاً مشاركاً في عملية بناء الحقيقة؛ من خلال الاعتراف بحقه في رفع ادعاءات صلاحيته، والمنافحة عنها من دون تعصّب للرأي الذاتي.

إن هذا المشروع هو الذي عَبَرَ فيه هابرمانس، في الطبعة الثالثة من كتاب *نظريّة الفعل التوصيلي*، عن المقاومة التي تعرض لها من لدن أنصار فلسفة الوعي بقوله: "لقد تم الدفاع عن فلسفة الوعي ضد تغيير البراديغم الذي شُرِّعَ فيه، وعلى وجه الخصوص تمت المنافحة عن التصور الفينومينولوجي لعالم الحياة (Lebenswelt)، وذلك ضد المحاولة الرامية إلى إعادة صياغته بالاستناد إلى نظرية في التواصيل" (م杰 1، ص 67). وقد ظلَّ هابرمانس مدينًا للأباء المؤسسين للسوسيولوجيا في هذا المشروع بالنظر إلى التحول الذي أحدثوه في البراديغم الذي يهمه، وهو تحوّلٌ قدّمَ تصوّرًا آخر عن "العقلانية الفيبريرية" التي تعتبر نظرية الفعل التوصيلي بمنزلة توسيعٍ لها، من خلال تجاوز "العقل الأداتي" إلى مجال توصيلي أرحب يستوعب أعطال العقلانية الأداتية، ويُقْوِّمُ اعوجاجات التواصل المُشَوَّهَ. فكل هؤلاء ساهموا، على نحوٍ أو آخر، في التحرر من معضلات فلسفة الوعي. ومن خلال تأسيس ميد علم الاجتماع على نظرية في التواصيل، وتأسيس دوركهايم نظرية في التضامن المُجَتمعي، فإنّهما ساهمما في تنزيل نظرية فيبر في العقلانية من خلال إحداث دمج بين الإدماج الاجتماعي والمنظومات القائمة في المجتمع، تُقْيمُ الصلة بين الإدماج الاجتماعي والإدماج في المنظومة" (م杰 2، ص 23).

وقد انطلق هابرمانس، لإنجاز ما خطط له في هذا الكتاب، الذي يُعتبر كتاباً جينيالوجياً في مسألة

فلسفة الوعي أو الفلسفة الذاتية، علاوةً على قلب العلاقة التي هيمنت على الفلسفة الذاتية التي كانت قائمة على نموذج "ذات - موضوع" إلى نموذج آخر قائم على ثنائية "ذات - ذات".

هذه العلاقة الجديدة من شأنها أن توسع فهمنا للعقلانية التوصيلية التي تختلف عن "العقلانية الأداتية" المستندة إلى النموذج الأول. وقد وجد هابرمانس في ميد ونظرية الاجتماع سندًا في تعميق تصوّره التوصيلي للعقلانية والفعل الموجّه وفقًا لمعايير معينة؛ من أجل تحقيق الاندماج الاجتماعي: "إن تغيير البراديغم الذي بدأ يتبّلور مع علم النفس الاجتماعي لدى ميد هو - في سياقنا - ذو أهمية، لأنّه يفسّح النّظر أمام مفهوم تواصلي عن العقلانية" (م杰 2، ص 29). وحتى أثناء انتقاد "المنظومة" أو "النسق" في المجلد الثاني، فإنّ الهاجس الذي لازمه في الكتاب كله يوحي بإعادة بناء خطاب العقلانية الغربية، في أفق إتمام "مشروع الحداثة" باعتباره مشروعًا غير مكتمل. وهي المهمة التي استمر فيها في كتاباته اللاحقة أيضًا؛ مثل الخطاب الفلسفى للحداثة الذي يعتبر دفاعًا عن "الحداثة الغربية" ضدّ أصوات "ما بعد الحداثة".

كأنّ هابرمانس يكمل ما بدأه في "نظريّة الفعل التوصيلي"؟ لكن ذلك انطلاقًا من تاريخ الفلسفة، وليس من كلاسيكيات علم الاجتماع. ولهذا، إنّ حضُر في نظرية الفعل التوصيلي فلاسفة وعلماء اجتماع من أمثال دوركهايم وفيبر وبارسونز وماركس وميد، فإنّ هيغل وهайдغر ونيتشه ودریدا وباطاى وفوکو، سيحضرُون بقوة في كتاب الخطاب الفلسفى للحداثة. هذه النّظرية التي دافع عنها ضدّ "فلسفة الوعي"، في كل برنامجه الإبستيمولوجي الهدف إلى تأسيس "فلسفة

في المجتمع، والوصول إلى السلطة ... إلخ، بل إنّ هدفها هو تحقيق التفاهم والإجماع بين المعنيين به في الفضاء العمومي؛ لتخفيض حدة التوتر بين الفاعلين، وبناء مجتمع يتسع للجميع. ولهذا، يُمكن أن نفهم هذا الميل إلى مبحث علم الاجتماع الذي يوفر هذه الإمكانيّة. ومن ثم، سيتّيّقّل هابرمانس، بعد تخصيص الفصل الأول لتحديد مفهوم العقلانية وتطورها ومساهمتها في نشأة العلم الحديث، إلى شرح الاقتران الداخلي بينها وبين نظرية المجتمع. ولن يتحقق هذا الاقتران، بطبيعة الحال، إلّا باستحضار الأهميّة التي يمكن أن تؤديها النظريّة الحجاجيّة في صقل قدرات الذوات القادرة على الكلام والفعل، وممارسة الفعل التواصلي في الفضاء العمومي المشترك بينها.

والمطلع على نظرية الفعل التواصلي لهابرمانس في هذا الكتاب، وفي الكتابات اللاحقة المتعلقة بالوعي الأخلاقي والفعل التواصلي، وبتضريحته المرتبطة بأخلاقيات المناقشة، يدرك الأهميّة الكبّرى لنظرية الحجاج في نظرية الفعل التواصلي التي يشغلها الاهتمام بالمنطق الصوري، فضلاً عن المنطق الحجاجي الذي يرتكز على دراسة الأفعال الكلامية وكيفية اشتغالها في الحقل التداولي. ثم إن المطلع على خبايا هذه النظرية، والكتب السابقة له، يدرك بسهولة العلاقة الوطيدة بين هذا الكتاب والأبحاث التي قدمها هابرمانس عن التداوليات الكلية، ونظرية الأفعال اللغوية في ارتباطها بنظرية الحجاج. وفي سياق الإشكالية نفسها المتعلقة بالعقلانية، تناول هابرمانس السمات التي تميّز الفهم الأسطوري والفهم الحديث للعالم.

العقل والعقلانية والعقلنة في الفكر الغربي الحديث والمعاصر، من تأمل تمهيدي خصّ به العقلانية في علم الاجتماع من الناحية النظرية؛ وذلك لأهميّة هذا المبحث في تناول مسألة العقلانية، مقارنةً بمباحث علمية أخرى مثل علوم السياسة والاقتصاد. ثم إنّ خصوصيّة علم الاجتماع بالنسبة إليه تكمن في تناوله الشمولي للمجتمع بدلاً من التركيز على ما هو فرعي فيه. وهذا ما عبّر عنه في قوله: "إن السوسيولوجيا هي الوحيدة من فروع العلوم الاجتماعيّة التي حافظت على صلة بمشاكل المجتمع بكامله، فقد ظلت أيضًا على الدوام نظريةً في المجتمع، وبذلك لم تُقصِّ مسائل العقلنة في مواجهة مع الطيف الكامل (ganzen Spektrum) لتجليات الفعل الاجتماعي، وليس مع أنماط الفعل الواضحة المعالم نسبيًا التي يمكن ارتسامها بوصفها تلوينات من الفعل العقلاني بمقتضى غاية ما (zweckrational) (مج 1، ص 85).

استنادًا إلى هذا التناول الشمولي لعلم الاجتماع المتعلق بالفعل الاجتماعي، يُفهم السبب الذي جعل هابرمانس يعيد بناء نظرية العقلانية من منطلق الدرس السوسيولوجي الحديث؛ إذ إنّ رهانه الإستيمولوجي هو تأسيس نظرية في التواصل، باعتبارها نظرية في المجتمع؛ تسعى للكشف عن الطاقات الكامنة في العلاقات التواصليّة انطلاقًا من خلفية عالم الحياة. فالعقلانية التي ينشدّها هابرمانس لا تتحصّر في "العقلانية الغائية" الساعية للزيادة في الإنتاج، أو التحكّم

رابعاً: ملاحظات بخصوص ترجمة بعض المفاهيم

لا يمكن الدخول في نقاش، في هذا الحيز، مع المترجم حول ترجمة بعض المفاهيم التي لا شك أنها تطرح صعوبة حقيقة في نقلها إلى اللسان العربي؛ وذلك بالنظر إلى التباعد الموجود بين اللغتين الألمانية والערבية من جهة، وبالنظر إلى طبيعة الإشكاليات التي خاض فيها هابرمانس، والتي يصعب إيجاد مقابل لها في السياق العربي من جهة أخرى. ثم إن ندرة الترجمات لأعمال هابرمانس من لدن أهل الاختصاص في الفلسفة الألمانية لم تتحقق ترافقاً في مجال ترجمة أعماله، على عكس ما نجده في الترجمات الإنكليزية والفرنسية والإسبانية. ولهذا، يمكن أن نتصور الصعوبات الكبيرة التي واجهت المسكيني في تعریف هذا الكتاب المهم.

بدلاً من "المعرفي"، ونجد "العلوم العرفانية" بدلاً من "العلوم المعرفية"؛ إذ على الرغم من أنّ الكلمة "المعرفية" ليست دقيقة جدًا، فإنها على الأقل ربما كانت أقرب إلى ذهن القارئ العربي من الكلمة "العرفانية" التي لها حمولة معينة في التصوف الإسلامي. ونجد أيضًا "النزعة الريفية"، بوصفها مقابلاً لـ *Provinzialismus*، بدلاً من "النزعة الإقليمية". فمصطلح "الإقليمي" أكثر دلالة على النزعة المحلية والانغلاق والتمركز من مصطلح "الريفي" الذي له ملمح "جغرافي" مرتبط بمجال الطبيعة والفلاحة أكثر من ارتباطه بمجال الفكر والانتماء. أما "أخلاقيات الدعوة"، فهو مفهوم ذو حمولة دينية دعوية كما هو معروف في العالم الإسلامي، في حين أنّ "الدعوة" لدى فيبر لا تتعلق بهذا المعنى، بل بالعمل الذي رفعته الكنيسة البروتستانتية إلى درجة العبادة؛ وهذا موجود في الإسلام نظريًا، وقد أشار المترجم إلى ذلك. لكن حينما نقول "أخلاقيات الدعوة"، فإنّ القارئ العربي ربما يظنّ أنّ فيبر يضع سلسلة من الأخلاقيات التي ينبغي أن يتصرف بها ممارس الدعوة للإنجاح مهمته الدعوية. ومثل هذا اللبس حرّي بالمترجم أن يزيله؛ لأنّ القارئ قد لا تكون له مرجعية فيبرية حتى يعرف القصد. ولهذا يُفضل أن نختار العبارات المتداولة اليوم في الثقافة العربية الإسلامية؛ حتى لا تتبّس على القارئ. والأمر نفسه يصحّ في الكلمة "فداء" مقابل الكلمة *Erlösung*، غير أنّ أقرب الكلمة متداولة في هذا السياق هي الكلمة "الخلاص"، ومنها طبعاً عقيدة الخلاص *Erlösungslehre*. لا ريب أنّ الفداء هو خلاص، ولكن المتداول أنّ الذي يقدم ك بشّا للفداء يكون ذلك منه بهدف الخلاص، وفي هذا السياق يُذكر أنّ المسيح فدى الآخرين بنفسه ليحقق لهم الخلاص. ولهذا كان الأخرى

واستناداً إلى تجربة المسكيني في ترجمة بعض نصوص هайдغر، ونيتشه وكانت، نجد أن خوضه في ترجمة كتاب ما لهابرمانس هو استمرار للترجمات السابقة التي راكم فيها تجربة ذات أهمية كبيرة. وهي تجربة لم تخضع بعد لأي دراسة نقدية للحكم عليها على نحو أو آخر. ومن هذا المنطلق، فإننا لن نخوض في الترجمة النقدية؛ لأنّ مثل هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستقل، لكننا نشير إلى أنّ القارئ الذي يُقبل على قراءة هذا الكتاب يجد مفاهيم جديدة فيها اجتهاد، لكن عدم افتهانها يجعله إزاء بعض الصعوبات إلى أن يتعدّد حمولتها الدلالية. ومن بين المفاهيم التي نجدها في الترجمة عبارة "السُّنة الأخلاقية"، بوصفها مقابلاً لـ *Kognitiv*، بدلاً من "الحياة الأخلاقية"، أو "الأخلاق الاجتماعية". ونجد كذلك "العرفاني" *Tabayyun*

للأبحاث" التي ستأتي لاحقاً في كل من الفلسفة الأخلاقية، والسياسية، وفلسفة الدين.

يُعد كتاب **نظريّة الفعل التواصلي** بمثابة "تدريب حواري" بين هابرمانس ومختلف المدرّسas السوسيولوجية الحديثة والمعاصرة، مثل مدرسة دوركهايم، وفيير، وميد، وبارسونز، وماركس، ولوهمان، إلى جانب نظريّات فلسفة اللغة، والتداوليّات، والنظريّات الحجاجيّة. وهو حوار مكّن هابرمانس، من إعادة بناء خطاب العقلانية الغربيّة في أفق التصدي لما يسميه "أمراض الحداثة الغربيّة". وعلى مستوى فلسفة الدين التي تحظى براهينية كبرى اليوم، فإنّ الكتاب يُعدّ أيضاً مساهمة نوعية في مسار هابرمانس أيضاً. فالمتّبع لمساره الفلسفي، يجد أنه سبق له أن ناقش "سؤال الدين" في كتابات سابقة عن نظريّة الفعل التواصلي، لكن النقاش تعمّق أكثر فأكثر في الفصول التي خصصها للمسألة الدينية من خلال استحضاره دوركهايم وميد، وخاصة في مسألة إضفاء الطابع اللغوي على المقدس. ولهذا، نرى أنّ عودة هابرمانس إلى فلسفة الدين، في أبحاثه المتأخرة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، ومناقشته "عودة الدين" في الفضاء العمومي، وتناوله كيفية تدبير المقدس بين المُتدينين والعلمانيين، يشكّل كله امتداداً لخريطة الطريق التي أعلن عنها في كتاب **نظريّة الفعل التواصلي**، وخاصة تصوّر طبيعة العلاقة بين "العالم المعيش" و"النسق"، وهي علاقة مختلفة عمّا ورد في نظرية لوهمان النسقية؛ إذ ينبغي ألا تكون قائمة على الانفصال، بل على التفاعل. وتكمّن أهمية مقاربة هابرمانس كذلك في جمّعه بين مقاربة ميد ومقاربة دوركهايم، بحكم تركيزهما على العالم المعيش والعمليّات التفاعليّة القائمة على اللغة والمعايير والرموز، ومقاربة لوهمان أيضاً القائمة على النظر

الاكتفاء بالدلّالات البسيطة والمُتداولة التي تفي بالغرض بدلاً من اقتراح مقابلات جديدة لا تكون دلالتها واضحة. وهذا الأمر يحضر في كثير من الاقتراحات؛ إذ تكون أمام المترجم إمكانية ميسورة لترجمة مصطلح بمصطلح آخر متداول، لكنه قد يختار الاجتهد في مفاهيم ربما تطرح لبساً لدى القارئ العربي خاصّة.

خاتمة

يمثّل كتاب **نظريّة الفعل التواصلي** مراجعة فلسفية عن الحداثة الغربيّة من أجل بعث الروح فيها من جديد، بعد تعرّض خطابها لانتقادات قوية من روّاد ما بعد الحداثة. إنّ هذا الكتاب، وإن كان لا يحمل أيّ كلمة تحيل مباشرة إلى فكرة "الحداثة"، فإنه في الأصل دفاعٌ عن العقل باعتباره أهمّ مقومات الحداثة الغربيّة. لكنّ تصور هابرمانس للعقل والعقلانية اختلف عن سابقيه بإعادة صياغة مشروع العقلانية الغربيّة في ضوء مفاهيم الفعل التواصلي والعقلانية التواصليّة، بدلاً من الارتباط بمفهوم العقلانية الغائية الأداتيّة التي لا ينكر أهميّتها، باعتبارها بعداً من أبعاد العقلانية الغربيّة. ويعكس كتاب **نظريّة الفعل التواصلي** الجهد الفلسفي المكثف لهابرمانس، طوال أكثر من ثلاثة عقود من الالتحاق بأهم البردaiمات الفلسفية والإنسانية والاجتماعية التي حاول، استناداً إلى مقاربات متعددة المباحث، أن يستخرج منها تصوّراً نقديّاً للمجتمع، وهو تصوّر حقّ به منزلة له في الفضاء الثقافي الألماني، وفي نظرية مدرسة فرانكفورت النقدية، ثمّ إنّه تصور جعل منه فيلسوف الفضاء العمومي والعقل التواصلي. وإضافةً إلى أنّ كتابه مثل تنويعاً للأبحاث السابقة في سنوات السبعينيات والسبعينيات، فهو أيضاً بمثابة "خريطة طريق

إلى المجتمع بوصفه نسقاً يتتألف من عدة أنساق مؤسس على مستويين متكملين: العالم المعيشية. وتركيجاً بين المقاربتين، خلص في نظرية والنسق. المتعلقة بالفعل التواصلي إلى تصور للمجتمع

References

المراجع

العربية

- الأشهب، محمد [وآخرون]. ما العدالة؟ معالجات في السياق العربي. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.
- _____. "مسارات العلم والحياة: في التأسيس والالتزام، العلوم الاجتماعية والتفكير في قضيائ: السياسة، الدولة، السياسات". تنسيق حسن طارق وسعيد بنيس. مجلة السياسات العمومية. ج 2، العدد 21 (ربيع 2016). في: <https://bit.ly/3ZNlzWv>
- _____. المجتمع والدين والسياسة. أكادير: مشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2021.
- الأشهب، محمد. "هابرماس وإعادة بناء المادية التاريخية: من براديغم الإنتاج إلى براديغم التواصل". مجلة الأزمنة الحديثة. العدد 17-18 (2020).
- المسكيني، فتحي. الإيمان الحر أو ما بعد الملة: مباحث في فلسفة الدين. الرباط: مؤمنون بلا حدود، 2018.

- هابرماس، يورغن. الحداثة وخطابها السياسي. بيروت: دار النهار للنشر، 2002.
- _____. "الحداثة - مشروع لم يكتمل". ترجمة فتحي المسكيني. تبيّن. مج 1، العدد 1 (صيف 2012).

الأجنبية

- Dubgen, Franziska & Stefan Skupien. *African Philosophy as Critical Universalism*. Switzerland: Palgrave Macmillan, 2019.
- Habermas, Jürgen. *Auch eine Geschichte der Philosophie: Band 1: Die okzidentale Konstellation von Glauben und Wissen*. Berlin: Suhrkamp, 1985.
- _____. *Zwischen Naturalismus und Religion*. Frankfurt am Main: Suhrkamp Verlag, 2009.
- Hontondji, Pauline. "Construire l'universel: un défi transculturel." *Méthode(s): Africain Review of Social Sciences Methodology*. vol. 2, no. 1-2: Epistemological Fractures in a Globalized World: Normalizations, Debates and Alternatives in the Social Sciences (2017).